

اسم الجامعة: المستنصرية

اسم الكلية: الآداب

القسم علم النفس

اسم المحاضر: م.م رقية سهيل

اسم المادة: الانثربولوجيا

عنوان المحاضرة: مفهوم الشخصية وطبيعتها

تسلسل المحاضرة: 11

احتلت الشخصية الإنسانية والعوامل المؤثرة في تكوينها، مكانة هامة في الدراسات النفسية والاجتماعية، وذلك بقصد التعرف إلى مكونات هذه الشخصية، وكيفية تكيفها وتفاعلها مع البيئة المحيطة، وبما يتيح نمو الشخصية وتطورها.

وعلى الرغم من الاتفاق على وحدة هذه الشخصية وتكاملها كنتاج اجتماعي من جهة، وكمحرك لتصرفات الفرد ومواقفه الحياتية من جهة أخرى، فقد تعددت تعريفاتها تبعاً للنظر إليها من جوانب متعددة.

فانطلاقاً من أنّ الشخصية تعبر عن الجوهر الاجتماعي / الحقيقي للإنسان، فقد عرفها رالف لينتون، بأنها: " المجموعة المتكاملة من صفات الفرد العقلية والنفسية. أي المجموع الإجمالي لقدرات الفرد العقلية وإحساساته ومعتقداته وعاداته، واستجاباته العاطفية المشروطة " كما عرفها /فيكتور بارنوا / بأنها: " تنظيم ثابت لدرجة ما، للقوى الداخلية للفرد. وترتبط تلك القوى بكلّ مركّب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشيء، والخاصة بالإدراك الحسي، والتي تقسّر - إلى حدّ ما - ثبات السلوك الفردي " .

وإتفاقاً مع التعريفين السابقين، يرى / أفلويد ليورت / أنّ الشخصية: هي استجابات الفرد المميزة للمثيرات الاجتماعية، وكيفية توافقه مع المظاهر الاجتماعية المحيطة به.

وهكذا، يعتبر مفهوم الشخصية عن الوصف الاجتماعي للإنسان، والذي يشمل الصفات التي تتكوّن عند الكائن البشري من خلال التفاعل مع المؤثرات البيئية، والتعامل مع أفراد المجتمع بصورة عامة. وهذا ما يعبر عنه بـ (الجوهر الاجتماعي للإنسان) . أي أنّها مجموعة الخصائص (الصفات) التي تميّز فرداً / إنساناً بذاته، من غيره في البنية الجسدية العامة، وفي الذكاء والطبع والسلوك العام .

فالعمليات الفيزيولوجية لدى الإنسان، ترتبط بالأفعال السلوكية المصاحبة، وتتعدّل هذه الأفعال عن طريق الخبرة التي يكتسبها من المجتمع. فالطعام كاستجابة للحاجة الفيزيولوجية الغذائية، يصاحبها سلوك معيّن يتمثّل في طريقة تناول الطعام، بصورها المتعدّدة.. فهي تتضمّن كلّ أفعال الفرد ومناشطه الجسمانية والسيكولوجية، وأيضاً التعلّم والتفكير، وكلّ شيء يدخل في محتوى السلوك، حتى العمليات العقلية فهي تندرج تحت مفهوم هذا المصطلح.

وتتميّز نتائج السلوك بخاصتين أساسيتين: الأولى: العمليات المادية، والثانية: العمليات السيكولوجية. ويندرج تحت العمليات السيكولوجية، ما يعرف بأنساق القيم والمعرفة. ويشير تصنيف نتائج السلوك إلى تفاعل الفرد مع البيئة، فالفرد عندما يواجه نظاماً جديداً، يحدث لديه ردّ فعل، ليس فقط في موضوعيته، ولكن أيضاً في اتجاهاته وقيمه ومعارفه التي اكتسبها من خبراته الماضية.. ولذلك، يؤيد بعض العلماء الأنثروبولوجيين تأثير العناصر السيكولوجية في محتوى الصيغة الثقافية، في دراستهم للثقافة والشخصية، وذلك لاعتقادهم بأنّ الشخصية هي نتاج الصيغة الثقافية التي تسود مجتمعاً ما.

إنّ شخصية كلّ فرد متميّزة ومتفرّدة بسماتها وخصائصها، ولكنّه في الوقت ذاته يشترك مع الآخرين من أبناء جنسه، في الكثير من المظاهر التي تجعله وإياهم من جنس واحد. ولذلك تتّصف الشخصية الإنسانية بنوع من الثبات، يبدو في مواقفها واتجاهاتها وأساليب تعاملها، وشعورها بهويتها. وفي المقابل، تخضع هذه الشخصية للتغيّر والتطور. وهذا ما تحدّدته مكونات الشخصية من جهة، والبيئة التي تنشأ فيها وتنمو من جهة أخرى.

فكون الإنسان يتميّز بشخصيته ولا يشبه أحداً، فهذا يعني أنّ لكلّ فرد مكوّناته الجسدية الخاصة، وله طريقته وأسلوبه في الشعور والإدراك والسلوك، بما يطبعه بطابع مميز لا يتكرّر عند أي شخص آخر بالصورة ذاتها.

أما كون الإنسان يشبه الناس الآخرين، فتمّة مظهران لذلك :

الأول : أنّه يشبه الناس كلّهم من حيث السمات المشتركة في الإرث البيولوجي، والبيئة التي يعيشون فيها، والمجتمعات والثقافات التي ينتمون إليها. فكلّ فرد هنا، التكوين العضوي / البيولوجي ذاته، بوصفه كائناً حياً اجتماعياً .

الثاني : أنّه يشبه بعض الناس، فهذا ما يلاحظ في تشابه سمات شخصية الفرد مع سمات أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها، أو بعض الأفراد الذين ينشأ – أو يتعامل – معهم.

وبناء على ما تقدّم، يمكن القول : إنّ الشخصية الإنسانية تتسم بالخصائص التالية

1- النمو والتكامل : فالشخصية تنمو وتتطوّر في وحدة متكاملة، من خلال تآزر سمات هذه الشخصية وقدراتها، وعملها بصورة مستمرة ومتفاعلة مع مواقف الحياة المختلفة، ولا سيّما تفاعل الإنسان مع بيئته وأنماط التنشئة الاجتماعية المتعددة التي يعرّض لها، وبالتالي استجابة هذه الشخصية بعناصرها الكاملة، في أثناء التعامل مع هذه المواقف المتنوّعة.

2- الهوية الشخصية (الذاتية) : وتعني شعور الفرد بأنّه هو ذاته، وإن حدثت له تغييرات جسدية ونفسية، عبر مراحلها النمائية. فمن طبيعة الإنسان أن يتغيّر ويتبدّل من يوم إلى آخر، بحكم قانون التطوّر، والذي يشمل جوانب الشخصية كافة، من بداية الحياة وحتى نهايتها. غير أنّ هويته الأساسية تبقى هي ذاتها، على الرغم من التغييرات الجسدية أو الوجدانية، التي تحدث بفعل عاملي : (العمر والثقافة) .

3- الثبات والتغيّر : أي أنّ خاصية الثبات في الشخصية الإنسانية، مستمرة ما دام الشخص على قيد الحياة، وفي المقابل فهذه الشخصية تابعة لخاصية التغيّر والتطوّر، التي تحدث بفعل المؤثرات المحيطة بالشخص، والتي تتفاوت في شدة فاعليتها لإحداث التغييرات التطورية.

وهذا الثبات الذي يتجلّى في : (الأعمال وأسلوب التعامل مع الآخرين، وفي البناء الداخلي والخارجي للشخص، بما في ذلك الدوافع والاهتمامات والاتجاهات، والخبرات) هو الذي يسمح – أحياناً – بالتنبؤ المستقبلي لهذه الشخصية.

والخلاصة، أنّ الشخصية تنمو وتتطوّر من خلال التفاعل المستمرّ مع ما يحيط بها. وكما أنّ الثبات سمة أساسية للشخصية، فالتغيّر والتطوّر أيضاً سمتان ملازمتان للشخصية. وإذا كان الاهتمام بدراسة الشخصية قليلاً في المجتمعات القديمة، نظراً لعدم النظر إلى الفرد كوحدة متكاملة، فإنّ تعقّد المشكلات الاجتماعية / الإنسانية، وتطوّر النظرة إلى دور الإنسان فيها، أدّى إلى زيادة الاهتمام بدراسة طبيعة الشخصية الإنسانية، لاكتشافها وإيجاد أفضل الطرائق للتعامل معها وتوظيف قدراتها.

نماط السلوك. فإنسان العصر الحجري القديم يختلف عن إنسان العصر الحجري الجديد، ويختلف أيضاً عن إنسان العصر البرونزي والعصر الحديدي. فالإنسان الذي يستخدم الأدوات البدائية كالأحجار والعظام والخشب، ويأكل البذور والجذور والحشرات والطيور، ويخاف من النار، لا يتوافق ثقافياً مع الإنسان الذي يستخدم الكهرباء أو يتحكّم بالآلات عن بعد، ويأكل الطعام من المطبخ ويتفنّن في صنع الأنواع المختلفة منه، وغير ذلك. وحتى في هذا العصر، فالإنسان الذي يعيش في دولة متحضّرة وتختلف ثقافته عن ثقافة الإنسان الذي يعيش في دولة نامية، فإنّ سلوك الأول – ولا شك – يختلف عن سلوك الثاني، تبعاً للزاد الثقافي الذي تزوّدت به شخصيته.

وقد أدّى التحلّي عن الفرضية التطورية التي استغلّها العلماء الأنثروبولوجيون الأوائل، فيما بعد، إلى تسهيل الدمج بين الأسلوبين : الأنثروبولوجي والسيكولوجي،.. والواقع أنّ الفرضية (النظرية) التطورية تلاشت، وحلّ محلّها مفهوم الثقافات بوصفها وحدات وظيفية متكاملة، كما ظهر الاتجاه إلى دراسة المجتمعات البدائية باعتبارها كيانات قائمة بذاتها، وهذا ما دعا إليه / مالبينوفسكي / الرائد الأول لهذه الحركة.

وهكذا يمكن القول : إنّ الثقافة تضفي على حياة الفرد قيمة ومعنى، وتكسب وجوده غرضاً له أهميته. وهي بالتالي تمدّ الأفراد بالقيم والأمال والأهداف التي توحدّ مشاعرهم وأساليب حياتهم. غير أنّ تشكيل الثقافة للفرد على هذا النحو، لا

يعني – بأي حال من الأحوال – إلغاء فرديته، إذ بواسطة الثقافة تنمو إمكانياته وتتحرر قواه، ويكتسب قدراته المتعددة، ويصبح بالتالي قادراً على الاختيار الصحيح والتمييز الواعي. هذا مع الأخذ في الحسبان الفروق الفردية بين الأشخاص، من حيث تأثرهم بالثقافة أو تأثيرهم فيها .

لقد ناقش العلماء طويلاً فيما إذا كان عالم الأنثروبولوجيا، يستطيع دراسة الشخصية في المجتمعات البدائية، دون أن يخضع – هو نفسه- للتحليل النفسي. ولم يدر حديث طويل عما إذا كان يجب على عالم التحليل النفسي الذي يهتم بالدراسة المقارنة للثقافات، أن يحصل على معلومات مستمدة من خبرة مباشرة بالمجتمعات التي تختلف عن مجتمعه اختلافاً تاماً، في الجزاء والأهداف وأنظمة الحوافز والضبط الاجتماعي .

فالواقع أنّ القليل من علماء التحليل النفسي، الذين أبدوا اهتمامهم بهذه المشكلات، أجروا بأنفسهم أبحاثاً ميدانية لاختبار نظرياتهم بين جماعات، تقع خارج نطاق الثقافات / الأورو- أمريكية / . وهذا ينطبق أيضاً- وإلى حد ما- على علماء النفس التقليديين، الذين يتناولون بالبحث سيكولوجية الثقافة، وعلى العلماء الذين يستخدمون طرائق ومفاهيم المدرسة التحليلية .

غير أنّ مجرد الإقرار بأن تركيبات الشخصية الأساسية تختلف باختلاف المجتمعات، لا يحقّق تقدماً أكثر من مفهوم النمط الثقافي السيكولوجي. ولا يكتسب هذا الإقرار أهمية علمية إلا إذا أمكننا تقصي طريق تكوّن الشخصية الأساسية، وإرجاعها إلى أسباب يمكن التعرف إليها .. وإذا أمكننا أيضاً التوصل إلى تعميمات هامة بشأن العلاقة بين تكوّن التركيب الأساسي للشخصية، وبين الإمكانيات الفردية الخاصة في مجالات التكيف.

ومما يلاحظ أنّ سيكولوجية الشخصية، سارت في خطّ تطوّري يكاد يكون مماثلاً لخط تطوّر الأثنولوجيا. فقد وقع هذا الفرع في بادئ الأمر، تحت تأثير العلوم الطبيعية، فحصر اهتمامه في الفرد، وحاول تفسير أوجه التشابه والفروق الفردية على أسس نفسية. ومع أنّ علماء النفس سرعان ما أدركوا أهمية البيئة في تشكيل الشخصية، فإنّ فائدتها اقتصرّت – في البداية- على استخدامها في تفسير الفروق الفردية.

لقد اعتمد الباحثون النفسيون – في الواقع- على نتائج ملاحظاتهم المحدودة، كما لو أنّها قضايا مسلم بصحتها، فافترضوا وجود غرائز عامة متنوّعة لتعليل ما لاحظوه من ظاهرات .. ثمّ تبين لهؤلاء العلماء أنّ معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات، فكان هذا الاكتشاف بمنزلة صدمة اضطرتهم إلى اتخاذ خطوات جذرية لإعادة تنظيم مفاهيمهم.

ولذلك، فإنّه على الرغم من أنّ الشخصية ليست في واقع الحال، إلا نتاجاً للعوامل الثقافية في المقام الأول، فإنّ الفرد ينزع – من خلال تجربته الثقافية – إلى تبني الشخصية النموذجية التي ترغب فيها جماعته. ولكنّ نجاح ذلك لا يتحقّق بالكامل أبداً، لأنّ بعض الأشخاص أكثر مرونة من غيرهم، وبعضهم الآخر يقاوم عملية التثقيف أكثر من غيره .

وهنا يمكن أن نميّز بين ثلاث طرائق في بحث التفاعل بين الفرد وبين وسطه الثقافي.

الطريقة الأولى : هي طريقة “الأشكال الثقافية“، التي تسعى إلى تحديد الأنماط السائدة في الثقافات، والتي تحدّد نمو بعض نماذج الشخصية .

الطريقة الثانية : هي طريقة “ الشخصية النموذجية ” التي تؤكد ردود فعل الفرد تجاه الوسط الثقافي الذي ولد فيه. وهي طريقة أنثولوجية في أساسها، لأن المرجع فيها دائماً هو النظم الاجتماعية، والأنماط الثقافية، التي تشكل الأطر التي ينمو بداخلها بنين الشخصية السائد لدى الجماعة. فهي تركز اهتمامها على الفرد، معتمدة على تطبيق التحليل النفسي على الدراسة المقارنة لمشكلاتٍ أوسع، تتمثل في مشكلات التلاؤم الاجتماعي.

الطريقة الثالثة : هي “ طريقة الإسقاط Projection” التي تستخدم طرائق الإسقاط المختلفة في التحليل، ولا سيّما مجموعة / رورشاخ / من بقع الحبر، وذلك لتحديد نطاق بنين الشخصية في مجتمع معين. وفي هذه الطريقة يتمثل كل من الفرد والثقافة. ولا شكّ في أنّ استخدام اختبار موحّد ترجع إليه النتائج كلّها، يزوّد بأداة منهجية لمعرفة بيان شخصية أفراد جماعة ما، في ضوء تثقيفهم على النظم الاجتماعية والقيم في ثقافتهم

فالثقافة لا تؤثر في أفراد المجتمع جميعهم، بطريقة واحدة، ولهذا يمكن أن يقسم تأثير الثقافة في الفرد إلى فئتين أساسيتين :

أولهما – التأثيرات العامة : وهي التأثيرات التي تحدثها الثقافة في الشخصيات المتطورة، من جميع أعضاء المجتمع الذي ينتمي إلى هذه الثقافة .

وثانيهما-التأثيرات الخاصة : وهي التأثيرات التي تحدثها الثقافة في أشخاص، ينتمون إلى جماعات أو قطاعات، أو فئات معينة من الأفراد، يعترف المجتمع بوجودها

وعلى الرغم من ذلك، يصبح الجميع – بوجه الإجمال – متشابهين إلى حدّ يكفي لأن يجد المرء – إذا ما طاف حول العالم – أنّ الناس يختلفون بعضهم عن بعض، من مجتمع إلى آخر، تبعاً لاختلاف الثقافات الواحدة عن الأخرى. ولكن بينما يسعى الأفراد إلى نيل الموافقة والحصول على الطمأنينة، ويحاولون الامتثال لأنماط السلوك التي تقرّها الجماعة أو التفوّق على أقرانهم، فإنّ ثقافتهم تحدّد لهم الأهداف التي ينشدونها وطرق الوصول إليها. وهذا هو موضع اهتمام (سيكولوجية الثقافة Psychology of Culture، أو السيكو أنثوغرافيا Psychoethnography، وهو دراسة الفرد من خلال السياق الثقافي الذي يؤدّي إلى تلاؤمه مع قواعد السلوك القائمة في مجتمعه عندما يصبح عضواً فيه. وهنا يكمن جوهر إحدى المشكلات الأساسية في دراسة الثقافة، والمتمثلة في معرفة تأثير السياق الثقافي في المجتمع، على نمو الشخصيات الفردية وتطوّرها العضوي والفكري والنفسي.

وبما أنّ الثقافة – في جوهرها – ظاهرة اجتماعية نفسية، تعيش في عقول الأفراد، ولا تجد تعبيراً عن نفسها إلاّ عن طريقهم، فإنّ دور الشخصيات الفردية في الإبقاء على الثقافة يتّضح بصورة جلية جداً، في الطريقة التي تتمكّن بها أية ثقافة من البقاء على قيد الحياة، حتى بعد انقطاع التعبير عنها في سلوك خارجي ظاهري، وحتى بعد زوال المجتمع الذي كان يحمل هذه الثقافة في الأصل. ولذلك، يستطيع عالم الأنثولوجيا أن يستعيد العناصر الأساسية لثقافة مجتمع منقرض، من آخر رجل من هذا المجتمع بقي على قيد الحياة. كما يستطيع أن يستعيد المهارات الخاصة التي سبق أن تدرب عليها هذا الرجل.

وتأسيساً على ما تقدّم، نجد أنّ ثمة علاقة وثيقة وتفاعلية بين الثقافة وأبنائها، فهي التي توجّههم في جوانب حياتهم المختلفة، لدرجة أنّهم يتصرّفون بطريقة منسجمة وآلية، في معظم الأحيان. والأفراد في المقابل، يؤثرون في هذه الثقافة ويسهمون في تطويرها وإغنائها، من خلال نتائجهم وإبداعاتهم الفكرية والفنية والعلمية. ولذلك، نرى اهتمام علماء التربية والاجتماع والأنثروبولوجية، بدراسة الثقافة للتعرف إلى السمات العامة للفرد أو الجماعة (المجتمع) في إطار مكونات هذه الثقافة، والتعرف بالتالي إلى أنماط الحياة الاجتماعية للناس، وتفسيرها والتمييز فيما بينها .